من فصول كتاب « الزيارات » للشابشتي

٢ ـ دير مـــديان

للأستاذ صلاح الدين المنجد

... ونرجع إلى ذكر إسحاق بن ابراهيم ، ونورد طرفاً من أخباره في حزمه وضبطه بقدر ما يليق بالكتاب

إسحق هذا هو ابن طاهر بن الحسين ، ويكنى أبا الحسين ، وكان المأمون اصطنعه وولاّه خلافة عبد الله بن طاهر بحضرته لما أخرج عبد الله إلى خراسان . وكان أشد الناس تقدّماً عنده واختصاصاً به . فذكر عبد الله بن خرداذبة أنه حضر مجلس المأمون يوماً وقد عرض عليه أحمد بن أبي خالد رقاعاً فيها رقعة قوم متظلمين من إسحاق بن ابراهيم ؛ فلما قرأها المأمون أخذ القلم وكتبَ على ظهرها : « ما في هؤلاء[1] الأوباش[2] على الموت ... فمن الرحمة بنفسه أن يعيش على عبير الذكرى ...

لقد أدركت بريطانيا العظمى خطر الموسيقى وخطر الغناء والهو البريء في إيقاظ عواطف الجنود ، فأنشأت في مصر أماكن خاصة (كفندق التروبوليتان) ، تعرض فيها عليهم شتى أنواع الأغاني والموسيقى والهو الطاهر ...

فعلتْ هذا لأن الخير فيه عظيم : فهي تعرض عليهم الأنشودة لتلهب فيهم الذكرى والحنين ... فيشتد الوفاء ، وترتبط أرواحهم بأرواح الأحبة في الوطن ...

ومن ثم يكون الشوق إلى العودة ظافرين . وليس الأمر ببعيد ، وها هي ذي صفحات التاريخ العربي المجيد ، ترينا كيف كان العرب في أشد المواقف حرجاً ، وفي ظلال السيوف والرماح يتغنون بذكرى الأحبة . وكفى أن نتذكر قول عنترة في معلقته :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

« المنصورة »

محمود البشبيشي

(١) في الأصل : هولا وهو تحريف

(٢) الأوباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب وهو جمع مقلوب من البوش

إلاّ كل طاعن واش . إسحاق غرسُ يدي ، ومَنْ غرستُه أنجب ولم يخلف[1] ، لا أعدى عليه أحداً[2] . » ثم كتب إلى إسحاق رقعة فيها : « من مؤدب مشفق إلى حصيف متأدب . يا بني ! من عز تواضع ، ومن قدر عفا ، ومن رأى أنصف[3] ، ومن راقب حذر ، وعاقبة الدالة غير محمودة ، والمؤمن كيّس فَطِن والسلام . »

وذكروا أن بعض ولد الرشيد ـ وكان له موضع من النسب ومكان في المعرفة والأدب ـ مرض ببغداد مرضاً طال ، ولم يقدر على الركوب ، واشتهى التفرج والتنزه في الماء ، فأراد أن يبني زلاّلا[4] يجلس فيه فمنعه إسحاق وقال :

« هذا شيء لا نحب أن يُعمل مثله إلا بأمر أمير المؤمنين » فكتب إلى المعتصم يستأذنه في ذلك ، فخرج الأمر إلى إسحاق باطلاقه له . فكتب إسحاق : « ورد عليّ كتاب من أمير المؤمنين باطلاق بناء زلاّل لم يحدّ لي طوله ولا عرضه ، فوقفت أمره إلى أن أستطلع الرأي في ذلك ... » فكتب إليه يحمده على احتياطه ويحد له ذرع الزلاّل

* * *

قال أبو البرق الشاعر : كان إسحاق يجري عليّ أرزاقاً . فأنشدته يوماً ؛ فسألني عن عيالي وما أحتاج إليه لهم . ثم قال لي : يحتاج عيالك في كل شهر من الدقيق كذا ، ومن كذا كذا ... فما زال يخبرني بشيء من أمر منزلي كثير جهلته وعلمه هو

* * *

وذكر أبو حشيشة الطنبوري قال : كنت يوماً في منزلي إذ طَرَق البابَ صاحبُ بريد وقال : أجِبْ . فلما قال أجِبْ علمتُ أنه أمرٌ حال . فلبست ثيابي ومضيتُ معه حتى دخلنا دار إسحاق بن ابراهيم . فَسُدِل بي إلى ممر طويل فيه حُجُر متقابلة ، تَفوح من جميعها روائحُ الطعام . فأُدخلتُ حجرة منها ، وقُدّم إليّ طعام في نهاية النظافة وطيب الرائحة ، فأكلتُ . وجاؤوني

(١) من الاخلاف ، يقال أخلف ما وعده ، هو أن يقول شيئاً ولا يفعله في المستقبل

(٢) أي لا أجعل أحداً يسمو عليه

(٣) كذا في الأصل ولعلها « رعى » ولكل وجه

(٤) الزلال : ضرب من السفن

بثلاثة أرطال نشربت، وأحضروني صندوقاً فيه طنابير، فاخترت طنبوراً منها وأصلحته على الطريقة، وأخرجتُ من الموضع إلى حجرة لم أر أحسن منها، وإذا في مجلسها رجلان على أحدهما قباء ملحم وقلنسوة سمّورية[1]، وعلى الآخر ثيابُ خزّ وستارةٌ مضروبة. فسلّمتُ وأمرتُ بالجلوس، فجلستُ. فقال لي صاحب السمّورية: غنّ، فتغنيتُ:

ما أراني إلا سأهجرُ مَنْ ليـ ... ـس يراني أقوى على الهجران
ملّني واتقاً بحُسْن وفائي ... ما أضر الوفا على الإنسان[2]

فغنيته فشرب رطلاً، ونقر الستارة وقال: غنّوه. فغنى الصوتُ أحسن غناء في الدنيا، وخيّلتُ أن البيت يرقص! . فقال لي: كيف ترى؟ قلت: والله يا مولاي بغّضوا إليّ هذا الصوت وسمّجوه في عيني. فضحك واستعادنيه ثلاث دفعات، فشرب في كل دفعة منها رطلاً. ثم قال: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا إسحاق بن ابراهيم، وهذا محمد بن راشد الخناق[3] ووالله لئن ظهر حديث هذا المجلس منك لأضربنك ثلاث مئة سوط. قم، إذا شئت. فقمت من بين يديه، فلحقني الغلام بصرة فيها ثلاث مئة دينار فاجتهدت أن يأخذ منها شيئاً، فأبى.

وذكر عمرو بن بانة قال: وجه إلى إسحاق بن ابراهيم في آخر النهار... فصرت إلى داره، وأدخلت عليه وهو جالس في طارمة[4] ملبسة بالخز على دجلة، وقد انبسط القمر على الروشن[5] وعلى دجلة، وهو من أحسن منظر رأيت قط، والمغنون جميعاً بين يديه. و(بذل) جالسة وراء مقطع في الطارمة. فلم يزل جالساً بموضعه ونحن بين يديه إلى أن نودي بالفجر، فقام وقمنا. وقال لنا الغلمان: انصرفوا، فنزلنا إلى الشط ودعونا بسميرية[6] فجلسنا فيها جميعاً، وقلت لهم: إن منزلي أقرب من منازلكم فاجعلوا مقامكم اليوم عندي فضلوا و...[1] في المنزل؛ فطلبت فيه شيئاً يؤكل فلم أجد: فأمرت بإحضار المائدة، فأحضرت فارغة، وطرحت في وسطها مئة درهم صحاحاً وقلت: يوجه كل واحد فيشتري له ما يريد. فما كان بأسرع من أن امتلأت بكل شيء... فأكلنا وشربنا، ومرّ لنا يوم طيّب، وتفرقنا في آخر النهار، وفي قلوبنا غصص مما فعله بنا إسحاق، وما فاتنا من تلك الليلة الحسنة في ذلك الموضع الحسن. فمضيت بعد ذلك إلى «بذل» وسألتها عن السبب فيما فعله. فقالت: قد سألته عن ذلك فقال: ويحكِ أنا أشتهي الشرب في مثل هذه الليلة منذ سنة وأواقع[2] نفسي به. فلما حصل لي جميع ما أريده واشتهيته أردت أن أرى نفسي سلطاني عليها، وقهري لها ومنعها مما تحبه لئلا[3] تقودني إلى ما تريد ففعلتُ ما رأيتِ.

وكان مع ذلك حسن المروءة كريم النفس فذكر أبو حشيشة الطنبوريّ قال: دعاني في بعض الأيام فصرت إليه وجلست أغنيه، وعليه دراعة خز خضراء لم أر أحسن منها قط. فجعلت أنظر إليها، وفطن لنظري[4] فدعا بالخازن وقال: كانوا جاؤونا منذ أيام بعشرة أثواب خز خضر، هذا أحدها، فجئني ببقيتها. فأحضر تسعة أثواب يتجاوز حسنها كل وصف فأعطانيها، فبعت من رذالها الثوب بمئة دينار

* * *

وكان المأمون يصير إليه في داره، فيقيم عنده الأيام هو وغلمانه وحشمه أنساً به وثقة بمكانه[5]

(دمشق) صبحي الدهر المنجد

---

(١) لعلها نسبة إلى السموه: دابة يتخذ من جلدها فراء

(٢) الشعر لعباس بن الأحنف. وقد ورد كذا في الديوان (طبعة الجوائب بالآستانه). وفي الأغاني: ج ٧: ٢٩٩ (دار الكتب):

قد حدا بي إلى الجفاء وفائي ... ما أضرّ الوفاء بالانسان

(٣) نديم ومغن

(٤) بيت من خشب يبنى كالقبة (القاموس والأساس)

(٥) الروشن: مكان عال مشرف وكأنه «الشرفة»

(٦) السميرية: ضرب من السفن (اللسان) وفي (تكملة إصلاح = ما تغلط فيه العامة) للجواليقي ما يلي: «وهي السميرية لضرب من السفن بالياء، وهي منسوبة إلى رجل يقال له سمير أظنه كان بالبصرة وهو أول من عملها فنسبت إليه، ولا تقل سمارية فانه خطأ». (التكملة للجواليقي مطبوعات المجمع العلمي العربي وتحقيق التنوخي ص ١٩١)

(١) كلمة مبهمة: ولعلها في معنى: اقتنا

(٢) في الأصل أدافع وهو تحريف. وفي القاموس أواقعه: أجامعه وهو المقصود هنا

(٣) في الأصل: ليلا وهو تحريف

(٤) في الأصل: فطن بنظري، والأولى فطن لنظري يقال فطن للأمر (الأساس — والقاموس)

(٥) روى الثعالبي طرائف كثيرة عن اسحاق انتخبنا منها ألطفها وأبينها